ولدى « حازم »

فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الثلاثاء ٢٣ شعبان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٩٥١ م تفضل الكريم العظيم فوهبنى غلاماً جعلنى به أبا ، وأذاقنى بمجيئه طعم الأبوة لأول مرة فى حياتى ، بعد أن شاء سبحانه وتعالى ألا يذرنى فى الحياة فرداً ، وهو خير الوارثين .

خرج الوليد الجديد إلى الحياة ، وفى الدنيا ملايين الولدان والأطفال ، ولكن كأنه عندنا نسيج وحده وليس فى الدنيا سواه ؛ وتبدى نوره من أعضائه الصغيرة الدقيقة ، ولكنه على الرغم من صغرها ودقتها ، ملأ البيت حياة ومعنى وعاطفة ؛ وإذا بكاؤه الصارخ فى نعومة صوت كأنه فى مسامعنا نغمات صاغتها ملائكة السماء ؛ وإذا وجوده قد مسح بيد البرء والرحمة على ماقاسته الأمومة الصابرة الشاكرة من آلام الحمل ومشقة الميلاد ، وإذا التقلبات الصحية التى صاحبت شهور الحمل التسعة وأياما فوقها قد صارت ذكرى تستعاد فيحلو منها المذاق . وهأنذا أتطلع إليه ولما تتحدد ملامح وجهه بوضوح فأرى فيه عمرى يتجدد ، ونجوبات صباى تتردد ، وحاضر أيامى يتعطر ويتمجد ، وآفاق مباهجى تتسع وتتعدد ، وكأنما الأب سائر فى الليل وجهة وليده الفرقد ! . . .

وعلى الرغم من أن الغد غيب محجب ، وأن المستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء ، وأن العباد بين أصابع الرحمان يقلبها كيف يريد ، وأن النفس لا تدرى ماذا تكسب غدا ، فإن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من السبح فى آفاق التصور والخيال ، تتمنى وتتوقع ، وترجو وتأمل ؛ ولقد ذهبت نفسى مع الخيال مذاهبها ، فارتادت حدائق ورياضا من الأحلام والآمال ، وأخذت ترسم لطفلها الوليد غداً يفيض بالخير والبشر ، ويحتشد باليمن والبركة ؛ ولكن من يدرى يابنى أينا يبقى وأينا يذهب ، وأى امرىء يدرك مبلغ ما فى أحلامه من إحقاق أو إخفاق ، وفوق تدبيرنا لله تدبير ! . . « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » .

كم أتمنى على الله يابنى أن يحرسك فى طفولتك ، وأن يرعاك فى ذهابك وأوبتك ، وأن يعصمك بالهدى والحق فى نشأتك ، وأن يجعل عالمك خيراً من عالمنا ، وعهدك أفضل من عهدنا ، فقد اكتوى أبناء عصرنا يابنى بنيران فترة عصيبة رهيبة ، كان فيها عثرات وعقبات ، ولعل أنت وأمثالك من آلاف الأطفال الذين يناغون آباءهم وأمهاتهم الآن فى مهودهم ، قد جاءوا ليفتتحوا عهداً جديداً يستقيم فيه الطريق ، وتتضح المعالم ، وتتحدد الغاية والهدف ! . . . ويوم تسعدون يابنى فى دنياكم ، وتعزون فى أمركم ، سنذوق نحن حلاوة العيش معكم ، ولو كنا يومها على هامش الحياة ، فإن نصركم نصر لنا ، وإن سعادتكم لنجد صداها فى قلوبنا وأرواحنا . . .

أى ولدى « حازم » ! . .

لأكتمك يابنى أننى اهتززت حينما هتف لى «الهاتف» يبشرنى بمطلع شمسك ؛ اهتززت هزة الرجل يدرك مبلغ النعمة ، ويشعر بوطأة التبعة . . لقد كان الزواج نعمة كبرى تنطوى على تبعة هششت لها ، واستعنت الله فى النهوض بأعبائها ثم جئت أنت أيها الأمل الحلو المرجى المرتقب من بعيد ، جئت وحولك أضواء وأغاريد ، ولكن هذه الأفواف والألحان لم تنسنى أنك تبعة ، إن تكن حلوة جميلة فهى كبيرة جليلة ... ليست الذرية « عملية تفريخ » يابنى ؛ يخرج الطفل ليلقى بين يدى الحياة بلا رسالة أو منهاج ، بل الذرية قطعة من القلب تسعى على الأرض ، وفلذة من الكبد تتقلب فى الدنيا ، وإنه لمهين ذليل من رضى لنفسه أن يضيع قلبه ، أو يهمل كبده ؛ فلأسأل الله أن يهبنى القدرة والتوفيق لأداء حقك وحفظ واجبك . حتى أراك غداً ملء السمع والبصر والفؤاد ، والله يحرسك ويرعاك !! ...

الأربعاء ٣٠ مايو سنة ١٩٥١ م

« أبو حازم »

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف